ملخص محاضرات في النقد الأدبي القديم

النقد الأدبي مفهومه نشأته و تطوره

المحاضرة الأولى : أوليات

حديثنا في هذا المقياس << النقد الأدبي القديم >> ، يفرض علينا أن نتخذ من السؤال وسيلة من أجل الوصول إلى الغاية، و لعل أبرز سؤال يبرز و يتبادر إلى ذهن الباحث أو الدارس، هو لماذا إقحام كلمة القديم لنعت النقد الأدبي ؟ و الجواب دون شك يحتم علينا أن نقر أن الأمر يتعلق بالتمييز بين هذا المصطلح، و ما يمكن أن يتميز عنه و في نفس الوقت يقابله حين نصفه بـ<< الحديث >> ، من منطلق ثنائية التقابل التي تعتبر العمود الفقري الذي تقوم عليه هذه الحياة التي نعيشها، و التي كما هو معلوم قائمة على التقابل في جميع مظاهرها و أشكالها .

من هنا يصبح مصطلح << النقد الأدبي القديم >> يفرض بالضرورة أن يتولد عنه مباشرة مصطلح آخر ، هو << النقد الأدبي الحديث >> . و هذا التقسيم الزمني هو التقسيم الزمني المعتمد فعلا عند نقاد الأدب و دارسيه، و المقصود بالقديم هنا، هو مرحلة ما قبل النهضة الأدبية الحديثة، و تلك هي المرحلة – أعني ما قبل النهضة الأدبية الحديثة – التي سيدور فيها حديثنا عن النقد في هذه السنة الجامعية .

إن المصطلح المتخذ عنوانا لهذا المقياس يربط النقد بالأدب، و الأدب في أبسط تعريف له هو التعبير عن الحياة، و ما يتعلق بالإنسان و ما يحيط به فيها،شريطة أن يكون هذا التعبير بكلام جميل إذا سمعته أراقك و حرك وجدانك و شغل فكرك و طلبت الزيادة منه و هذا الكلام يؤكد ما يقبله العقل و لا يرفضه المنطق من أن الأدب موجود مع الإنسان ملازم له بصورة أو بأخرى مند أقدم العصور؛ فحتى و إن << خلا جزء عظيم من تاريخ البشر من كتابة و كتب، فالأرجح أن هذا الجزء لم يخل من أدب>>1 .فالشعر العربي لم يبدأ حياته على هذا النظام الكامل ممثلا في نموذج المعلقة لأن طبيعة الحياة و المنطق يفرضان سنة التطور و الارتقاء قبل الوصول الى الكمال أو ما يشبهه.

و حتى يكون الحديث مؤسسا و مبنيا على الملموس، لا بد من الإشارة إلى أن نقطة بداية الأدب العربي حددها النقاد و الدارسون بالعصر الجاهلي الذي يقصدون به << ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية و هي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، و التي جاءنا عنها الشعر الجاهلي >>2

1- حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية ، بيروت ،ط 10، 1980، ص:42.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ط8،دت،ص:38

و هذا الاتجاه هو نفسه الذي نهجه الجاحظ من قبل حين اعتبر << الشعر العربي حديث الميلاد صغير السن أول من نهج نهجه و سهل سبيله وعبد الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، و مهلهل بن ربيعة و يدل على حداثة الشعر العربي قول امرئ القيس بن حجر:

إن بني عوف ابتنوا حسبا ضيعه الدخللون إذ غـــــدروا

أدوا إلى جارهم خفارتـــه ولم يضع بالمغيب من نصـــروا

لا حميري وفى و لا عدس ولا است عير يحكها الثفـــر

لكن عـــوير وفى ذمته لا قصـــر عابه ولا عـــور

..فانظر كم كان عمر زرارة و كم كان بين موت زرارة و مولد النبي عليه الصلاة و السلام فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين و مائة عام و إذا استظهرنا غاية الاستظهار فمائتي عام >>1.

الأدب العربي إذا قديم و يشهد على ذلك ما وصل إلينا من نصوص أدبية شعرية و نثرية منذ العصر الجاهلي، و تلك حقيقة لا اختلاف فيها بين معظم الدارسين و النقاد، رغم ظهور بعض المشككين الذين ينظرون إلى ما ينسب إلى هذا العصر من نصوص نظرة ريبة و شك.

من خلال ما تقدم من كلام يصبح من الطبيعي أن نسأل مجموعة من الأسئلة ذات صلة بالفكرة التي أردنا إبرازها و ترسيخها في الأذهان لتكون الأساس الذي سنبني عليه الحديث عن النقد في قادم الأيام و لعل أهمها :

ما مفهوم النقد و ما علاقته بالأدب ؟ و هل يمكن أن نتحدث عن أنواع فيه ؟ من هو الناقد و ما هي صفاته ؟ هل النقد قديم قدم الأدب ؟ متى ظهر و أين؟ كيف نشأ و ما هي مراحل تطوره؟ و هل للبيئة أثر فيه ؟ ما هي القضايا التي عالجها و ما طبيعة الأحكام التي أصدرها النقاد عبر مختلف مراحل تطوره قبل العصر الحديث؟

---

1 - الجاحظ كتاب الحيوان،تر عبد السلام هارون، ج1،ط2 ، 1965،ص:74.

جاء في كتاب الحيوان في الصفحة 427 التوضيح التالي :في العبارة شيء من الغموض لوجازة ألفاظها فلتوضيحها يقال أن امرأ القيس هو من أقدم شعراء العرب قد ذكر عدسا و عدس هو والد زرارة و زرارة كان قريب العهد من مولد الرسول إذ أنه مات يوم أوارة الثاني و كان ذلك في أيام عمر بن هند اللخمي الذي ولد الرسول في أيامه فنخلص مما تقدم إلى أن أقدم شعر عربي لا يبعد عهده عن الإسلام كثيرا.

هذه الأسئلة – وغيرها كثير دون شك – هي التي ستكون مضامين لهذه المحاضرات التي ستغطي مقياس النقد الأدبي القديم .

و عليك أيها الطالب إذا أردت توسيع معارفك و تنمية قدراتك و بناء شخصيتك العلمية أن تتخذ من البحث و المطالعة سبيلا إلى ذلك و إليك أهم ما ينفعك و يكون لك رافدا من المؤلفات التي تفيدك في المقياس

- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي المتوفى في العام 232هـ.
- الشعر و الشعراء لابن قتيبة المتوفى في العام 276هـ.
- المفضليات للمفضل الضبي المتوفى في العام169هـ.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي المتوفى في العام 326هـ.
- الأصمعيات للأصمعي المتوفى في العام 216هـ.
- البيان و التبيين للجاحظ المتوفى في العام 255هـ.
- الحيوان للجاحظ المتوفى في العام 255هـ.
- الموازنة بين الطائيين للآمدي المتوفى في العام 370هـ.
- العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى في العام 328هـ.
- دلائل الإعجاز للجرجاني المتوفى في العام 471هـ.
- أسرار البلاغة للجرجاني المتوفى في العام 471هـ.
- العمدة لابن رشيق القيرواني المتوفى في العام 454هـ.
- المثل السائر لابن الأثير المتوفى في العام 637هـ.
- منهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني المتوفى في العام 684هـ.
- النقد العربي القديم داود سلوم .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب إحسان عباس.
- الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي بشير خلدون
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب طه إبراهيم
- النقد المنهجي عند العرب محمد مندور
- أسس النقد الأدبي عند العرب أحمد بدوي
- النقد الأدبي القديم في المغرب العربي محمد مرتاض
- النقد الأدبي أحمد أمين
- مشكلة السرقات في النقد العربي محمد مصطفى هدارة

- الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم عثمان موافي
- اللفظ و المعنى في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب الأخضر جمعي.

المحاضرة الثانية

مفهوم النقد نشأته و تطوره:

من خلال ما تقدم من حديث في المحاضرة السابقة و التي حاولنا فيها أن نضع الأساس الذي سنبني عليه حديثنا عن النقد الأدبي القديم من خلال التركيز على هذا المصطلح << النقد الأدبي القديم >> و محاولة تفكيكه إذ وقفنا على كلمة أدب من حيث تطورها و كذلك على كلمة قديم و دلالتها في تركيب المصطلح المذكور إضافة إلى العلاقة بين الكلمتين باعتبار أن الأدب هو القاعدة الأولى و الركيزة الأساسية التي يرتكز عليها النقد .بل أن الصلة بين الاثنين كصلة المنتج للسلع و المستهلك لها يصعب الفصل بينهما إذ لا فائدة من وجود أحدهما دون الآخر.

في هذه المحاضرة سنحاول أن نركز الحديث على مفهوم النقد الأدبي و نشأته و تطوره قبل النهضة الأدبية الحديثة .

النقد في اللغة:

و لا أظن أننا سنجانب الصواب عندما ننطلق من المعنى اللغوي لكلمة << نقد >>و ما تحمله من معان في معاجم اللغة العربية نظرا لما نجده من علاقة بين المعاني اللغوية و دلالة الكلمة في التركيب الاصطلاحي الذي نوظفه اليوم .

الأكيد أن معاني مادة << نقد >> تتعدد في معاجم اللغة العربية و عليه سنعرض فيما يلي أهمها:

المعنى الأول :

نجده في لسان العرب حيث جاء فيه :<< نقد، النقد خلاف النسيئة، و النقد و التنقاد: تمييز الدراهـــم و إخراج الزيف منها أنشد سيبويه :

تَنْفِي يَداها الحَصَى، في كلِّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدَّنانِيرِ تَنْقادُ الصَّيارِيف

ورواية سيبويه: نَفْيَ الدراهِيمِ، وهو جمع دِرْهم على غير قياس أَو دِرْهام على القياس>>1

و في نفس المعنى نجد : نقد الشيء بإصبعه إذا نقره كما تنقر الجوزة لاختبارها و تعرف حالها و نقد الطائر الأرض بمنقاره بحثا عن الحب و نقد الفخ بمنقاده ينقده ليكشف عما وراءه من خوف أو أمن 2

المعنى الثاني:

نجده في مختار الصحاح للرازي: النقد يعني الإعطاء حيث جاء فيه :<< نقـده الدراهم و نقد له

1- لسان العرب مادة<< نقد>> ،ص:4517.

2- ينظر عثمان موافي، دراسات في النقد العربي،دار المعرفة الجامعية، ط3، 2000،ص:21.

الدراهم أعطاه إياها وانتقدها أي قبضها >> 1.

المعنى الثالث :

اختلاس النظر نحو الشيء نقول نقد الرجل الشيء بنظره ينقده نقدا و نقد إليه بمعنى اختلس النظر نحوه و ما زال ينقد بصره إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه و يتأمله بإمعان .

المعنى الرابع :

تأتي كلمة نقد بمعنى البحث عن العيب و كشفه .

و في حديث أبي الدرداء أنه قال:"إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك" معنى نقدتهم أي عبتهم و اغتبتهم قابلوك بمثله 2 .

النقد في الاصطلاح :

بنظرة متفحصة للمعاني التي ذكرنا نلاحظ أنها تمثل مجموعة متشابكة من الدلالات و كل واحدة من هذه الدلالات نجد فيها ما يقربها من المعنى الاصطلاحي من ذلك تمييز الزيف من الصحيح و الجيد من الرديء و محاولة معرفة ما وراء الشيء أو معرفة العيب و التحدث به أو إمعان النظر في الشيء أو نقره من أجل معرفة حاله .

كل هذه المعاني لها وجودها في المعنى الاصطلاحي للنقد باعتبار أن العملية النقدية تتم من خلال الاطلاع و القراءة و التمعن في معنى و مكونات القطعة و كيفية نسجها و بنائها ثم الحكم عليها بتحديد الجيد من الرديء و الصحيح من الخطأ فيها ، << و النقد في اصطلاح الفنيين تقدير القطعة الفنية و معرفة قيمتها و درجتها في الفن سواء كانت القطعة أدبا أو تصويرا أو حفرا أو موسيقى >> 3. و أول ما يجب الانتباه إليه من خلال هذا المفهوم هو أن كلمة نقد لا تعني بالضرورة نقد الأدب و حده فلجميع الفنون كما هو معلوم نقدها الخاص بها و الذي يحترفه المختصون فيها.

أما النقد المتعلق بالأدب و الذي يصطلح على تسميته النقد الأدبي ففي أدق معانيه هو << فن دراسة النصوص الأدبية لمعرفة اتجاهها الأدبي و تحديد مكانتها في مسيرة الأدب و التعرف على مواطن الحسن و القبح مع التفسير و التعليل فهو يعني بدراسة الأساليب و تمييزها ويتناول العمل الأدبي يفسره و يناقشه مستخلصا عناصر الجمال التي احتواها و التي كانت سببا في سموه و ارتقائه أو بيان السمات التي أدت إلى اتضاعه و احتقاره>>4.

1- محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح،مكتبة لبنان ، دط، دت، مادة << نقد>> ،ص: 281.

2- ينظر مصطفى عبد الرحمان إبراهيم،في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة و النشر،دط،1997،ص:4.

3 - أحمد أمين، النقد الأدبي،دار الكتاب العربي بيروت،ط4، 1997،ص:17.

4 – مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، المرجع السابق ، ص:5.

للنقد أهمية كبرى في عالم الأدب فهو من جهة يدرس الأدب و يحدد بيئته و يبرز مدى تأثره بها و حقيقة نقله لصورتها و هذا الأمر هو ما دفع النقاد منذ القدم أن يقسموا الأدب و ينسبون الأدباء الى بيئات مختلفة فتحدثوا عن أدب الشام و العراق و أدب المشرق و المغرب كما تحدثوا عن شعراء مكة و المدينة و شعراء المغرب و الأندلس..

كما يفيد النقد المبدع بأن ينبهه إلى زلاته و أخطائه و مواطن ضعفه و هو بذلك يرسم له الطريق و يحدد له المنهج لينير له السبيل حتى يحسن من مستواه و يرتقي بإبداعه . و من جهة أخرى يفيد المتلقي باعتباره المعين الذي يأخذ بيده ليوجهه للطريقة المثلى لكيفية قراءة الأدب و يعينه على فهمه و تذوقه فيغرس بذلك فيه حب المطالعة و يعمق فيه الإحساس بالجمال . ولا يمكن أن يقوم بهذا الدور إلا الناقد ؛ ذلك القارئ أو المتلقي المتميز عن غيره باتساع ثقافته و تنوع معارفه و سلامة ذوقه و دقة معرفته بمقومات الأدب و أسرار الجمال فيه إضافة إلى موهبته و طول مراسه و أخيرا موضوعيته و ضميره.و الجميل أن << ضمير الناقد الأدبي ظهر واضحا عند نقادنا العرب فنجد منهم من آثر العدل في حكومته و الحيدة في رأيه و احتكم إلى الذوق السليم الذي لم تفسده حمى التعصب كما فعل الآمدي في موازنته و كما فعل الجرجاني في وساطته التي أنصف فيها المتنبي من خصومه>> 1

و على هذا الأساس يصبح الناقد ضرورة للأدب و الأديب و المتلقي على السواء لا يمكن الاستغناء عنه و لا الاستهانة بدوره و قد انتبه إلى هذا القدماء و عبروا عن ذلك كما عهدناهم بطريقة بسيطة تعتمد الإقناع انطلاقا من الواقع فقد << قال قائل لخلف : إذا سمعت أنا بالشعر و استحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت و أصحابك

فقال له :إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف أنه رديء هل ينفعك استحسانك له >>2. و ليس معنى ذلك أن يصبح القارئ أو المتلقي عموما عبدا للناقد يأتمر بأمره و ينتهي بنواهيه يرى بعينه و يفكر بعقله و ينطق بلسانه فهذا أمر يرفضه المحدثون رفضا قاطعا و هم في ذلك على حق لأن مثل هذا الاعتقاد يغلق باب الاجتهاد و يغلق دائرة النقد فيؤثر على رحابة الإبداع.

1- مصطفى عبد الرحمان ابراهيم ، المرجع السابق، ص:21.

2- ابن سلام، طبقات الشعراء ،دار الكتب العلمية بيروت،دط، 2001، ص:28.

المحاضرة الثالثة

نشأة النقد الأدبي عند العرب و تطوره:

العصر الجاهلي:

رأينا في ما سبق كيف أن النقد يرتبط ارتباطا وثيقا بالأدب و عليه فإن ظهور النقد لا بد أن يكون مع ظهور الأدب حيث << ولد النقد الأدبي مع مولد الشعر و نشأ معه و هذا أمر طبيعي إذ أن الشاعر ناقد بطبعه يفكر و يقدر و يختار لهذا كان أقدر من غيره على فهم الصنعة الشعرية و على إدراك أسرار القبح و الجمال >>1 و هناك من يرى أن المنطق يفرض أن يكون الإبداع الأدبي أسبق على النقد باعتبار أن النص الأدبي هو الميدان الذي يدور فيه النقد بحيث<< يبدأ النقد وظيفته بعد الفراغ من إنشاء الأدب،فالنقد يفرض أن الأدب قد وجد فعلا ثم يتقدم لفهمه و تفسيره و تحليله و تقديره،و الحكم عليه بهذه الملكة المهذبة أو الملهمة التي تكون لملاحظاتها قيمة ممتازة و آثار محترمة >>2 . تتعدى النص إلى المبدع و المتلقي على السواء و مهما كان الرأي فإن الأكيد أن النقد الأدبي عرفه العرب منذ العصر الجاهلي و مارسوه و إن كان ذلك بصورة بسيطة بساطة الأدب و حياة العرب حينها .و من المفيد هنا أن نعرض بعض النماذج الدالة على وجود النقد في هذه الفترة من ذلك ما كان من أسواق أدبية كسوق عكاظ التي تعتبر أكبر سوق تجتمع فيها القبائل العربية و يجلس فيها النابغة على ربوة يستمع للشعراء و يصدر الأحكام على أشعارهم و لعل أول ما يجب الانتباه اليه هنا هو أن الأحكام التي كان يصدرها النابغة هي أحكام آنية و بطريقة شفوية و الشفوية تعتبر أول خاصية يمكن الوقوف عندها من خاصيات النقد في مراحله الأولى في العصر الجاهلي .

و من النماذج التي تزخر بها كتب النقد التي تصدت لهذا الفن في العصر الجاهلي ما افتتح به إحسان عباس مقدمة كتابه: « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » عندما كتب : <<حدث بعضهم قال : تحاكم الزبرقان بن بدر و عمرو بن الأهتم و عبده بن الطبيب و المخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر ، أيهم أشعر ؟ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو انضج فأكل و لا ترك نيئا فينتفع به، و أما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيه النظر نقص البصر و أما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم و ارتفع عن شعر غيرهم ،و أما أنت يا

1- حسن جاد ، دراسات في النقد الأدبي ، دط ،1977، ص:37.

2- ينظر أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة،ط 10، 1994، ص:116.

3- إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت، ط4، 1983،ص:13.

عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر و لا تمطر>> 3 .

الأكيد أننا جميعا عندما ندقق النظر في هذا الحكم فإن أول ما يلفت انتباهنا ظاهرة الغموض الذي تعتريه ما يجعل العودة لمعاجم اللغة للوقوف على فهم عويص* معاني بعض ألفاظه أمرا حتميا.و عليه فإن هذا الحكم وجب توضيحه كالتالي:

شعـــــر بن الزبرقان : كلام جاء في صورة الشعر لم يبلغ درجة النضج فكأنه في بداية الطريق يجمع بين الطيب و الرديء

شعر عمر بن الأهتم : من قبيل الشعر الذي يعتمد البهرجة يغريك لأول وهلة بجمال ألفاظه و بحسن موسيقاه و إيقاعاته لكن عند إعادة النظر فيه بإمعان لا نجد في معانيه شيئا فكأنه الثوب يزين صاحبه من خارجه .

شعر المخبل السعدي: شعر وسط لم يرق إلى مرتبة شعر الفحول و لم يتدن إلى مستوى الإسفاف و الضعف الذي ينشده من لا علاقة له بالشعر.

شعر عبدة بن الطيب: متين النظم متماسك متلاحم جزل، قوي المعنى.

أما الاستنتاج الذي نستنتجه فهو كالتالي:

- الأحكام الصادرة تعبر عن انطباع عام خرج به ربيعة بعدما سمع أشعار الأربعة
- الأحكام جاءت موجزة عامة لا تعليل فيها
- اعتمد فيها التشبيه قصد تقريب المقصود من الذهن
- لم تتعد الحكم على الصياغة و المعنى

و من النماذج التي يذكرها النقاد حين حديثهم عن النقد في هذا العصر ما كان من ردة فعل لطرفة بن العبد و هو في عهد الصبا عندما قرع سمعه قول المسيب بن علس:

و قد أتناسى الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم1

فقال طرفة كلمته المشهورة التي أصبحت بعد ذلك مثلا يضرب << استنوق الجمل>> لأن الصيعرية علامة توضع للناقة لا توضع للجمل و الناظر في هذا الحكم يجده من جهة يدل حس لغوي يتمتع به العربي منذ صغره ويدل من جهة ثانية أن استعمال الألفاظ لغير ما تدل عليه مستهجن عند العرب و

1- إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت، ط4، 1983،ص:13.

*- البرود ، جمع برد ، قال بن سيده : البرد ثوب فيه خطوط و خص بعضهم به الوشى و الجمع أبراد و أبرد و برود. ينظر لسان العرب مادة » برد » ص: 250.

- حبر ، حسن جديد و ناعم ، حبرت الشيء تحبيرا حسنته، ينظر لسان العرب ،ص:749.

- المزادة ما يوضع و يخزن فيه الماء. مكدم بمعنى شديد قوي

كما نلاحظ فإن هذا الحكم جاء متميزا بـــــ

- الشفوية ←——— سمع ، قال
- الايجاز و فيه نوع من السخرية
- الجزئية اذ أن الحكم كان على لفظة أفسدت المعنى بحسب ذوق العربي

وغير بعيد عن هذا النقد الذي يمكن اعتباره نقدا لغويا <> ما روي أن الأعشى أنشد قيس بن معد يكر أحد أشراف اليمن شعرا في مدحه جاء فيه :

و نبئت قيسا و لم أبله و قد زعموا ساد أهل اليمن

فعابه قيس لما شاب معناه من عدم توفيق و مما دفعه لاستدراك الوضع و إصلاح البيت بقوله :

و نبئت قيسا و لم آته على نأيه ساد أهل اليمن .>> 1

و ما تنبه إليه قيس هنا يتعلق باستعمال لفظة « زعموا » استعمالا غير دقيق باعتبار أن هذه الكلمة تستعمل للدلالة على ما يعتريه الشك و هي كما يقولون مطية الكذب .مما سبق يتجلى لنا بوضح نباهة العربي و شدة إحساسه بلغته و قدرته الفائقة على التنبه لأدق الاختلالات في استعمالها .

و من النماذج التي تمكننا على الوقوف عليها وهي أحكام تخص المعاني و تبرز نظرة الجاهليين للمبالغة ، ما عيب على المهلهل بن ربيعة حين قال :

فلولا الريح أسمع أهل حجر صليل ابيض تقرع بالذكور

لقد وصف هذا البيت بأنه أكذب بيت قالته العرب و لعله أول بيت كذبت فيه و السبب هو المبالغة التي تنافي الواقع و لا تطابقه و هو ما لم يكن يتقبله العقل و الذوق العربيين في ذلك العصر و السبب في هذا الحكم السلبي على هذا البيت هو أن موطن الواقعة كان في الجزيرة بينما تقع حجر باليمامة و بين المنطقتين مسيرة عشرة أيام كما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة 2.

و لا يمكن أن نبرح العصر الجاهلي دون الوقوف على حكم نقدي نرى أنه فيه بعض النضج باعتبار أن صاحبته حتى و إن كان الأمر بينها و بين نفسها فقد و ضعت مقياسا فاضلت به بين شاعرين الأمر يتعلق بأم جندب زوج امرئ القيس التي قدم إليها امرؤ القيس و ابن عمها علقمة الفحل و طلبا منها أن تحكم بينهما أيهما أشعر فقالت لهما:

1- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ، المرجع السابق، ص:31.

2- طه أحمد إبراهيم، النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى القرن الرابع الهجري، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة،دط، 2004، ص: 35.

قولا شعرا على روي واحد و قافية واحدة تصفان فيها الخيل ففعلا ثم انشداها حيث قال امرؤ القيس:

فللسوط ألهوب و للساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب *

و قال علقمة الفحل :

فأدركهن ثانيـــا من عنانـــــه يمر كمر الرائـــــح المتحلب

فحكمت ضد زوجها لأن فرسه كما ترى << بليد لم يدرك الطريدة إلا بعد أن ضرب بالسوط، و أثير بساق الراكب،و هيج بالزجر و الصياح . و أما فرس علقمة فنشيط لا يحتاج الى إهاجة يسرع في عدوه إسراعا و ينصب في السير انصباب الريح ، جرى خلف الصيد و لجامه مشدودة إلى وراء منتن غير مرخي 1>>

الحكم مثلما نلاحظ و كما أشرنا سابقا جاء معللا و لم تعتمد فيه أم جندب فقط على السليقة و الفطرة و الذوق الشخصي ، إنما و ضعت مقاييس محددة بنت عليها موازنتها بين الرجلين ، و لم تنتصر لزوجها ما يمكن اعتباره موضوعية من قبلها .

و تروي كتب الأدب و الأخبار القديمة أن الشعراء كانوا يفدون على النابغة في سوق عكاظ و ينشدون عليه أشعارهم فدخل إليه ذات يوم حسان بن ثابت و كان عنده الأعشى و قد أنشده ، و أنشدته الخنساء التي كانت شاعرة الرثاء في عصرها قصيدتها التي مطلعها :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم درفت إذ خلت من أهلها الدار

حتى وصلت قولها:

و إن صخـــرا لتأتم الهداة به كأنه علـــم في رأســـــه نار

و إن صخرا لمولانا و سيدنا و إن صخرا إذا نشتو لنحار

فأعجب بالقصيدة و قال لها لولا أن أبا بصير – يعني الأعشى- أنشدني لقلت أنك أشعر الجن و الإنس .

فقال حسان : أنا أشعر منك و منها

حيث تقول ماذا ؟

حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما

و لدنا بني العنقاء و ابني محـــرق فأكرم بنا خالا و أكرم بما ابنما

---

* أخرج = ذكر النعام / مهذب = مسرع

1- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ،المرجع السابق، ص:39.

فقال إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك و فخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك و في رواية أخرى فقال له : انك قلت الجفنات فقللت العدد و لو قلت الجفان لكان أكثر و قلت يلمعن في الضحى و لو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا و قلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل و لو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم و فخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك .

هذا الحكم مثلما هو واضح اعتمد فيه صاحبه على انطباع شخصي تأثره فيه بما ألفه العرب واضح عندما عاب على الشاعر الافتخار بالأبناء عكس ما كان سائدا عند العرب و أما حكمه بعدم توفيق الشاعر في اختيار الألفاظ ذات الصيغ الدالة على معاني المبالغة المقبولة فهو صادر عن ذوق شخصي تابع لما أحدثته أبيات الشاعر فيه من انطباع و لعل الدليل على ذلك يأتينا على لسان قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر حيث قال : << فمن ذلك أن حسان لم يرد بقوله الغر أن يجعل الجفان بيضا فإذا قصر عن تصيير جميعها أبيض نقص ما أراده و إنما أراد بقوله الغر المشهورات كما يقال يوم أغر و يد غراء و ليس يراد البياض في شيء من ذلك بل تراد الشهرة و النباهة .

و أما قول النابغة في يلمعن بالضحى أنه لو قال بالدجى لكان أحسن من قوله بالضحى إذ كل شيء يلمع بالضحى فهو خلاف الحق و عكس الواجب لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور شديد الضياء فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور و أيسر بصيص يلمع فيه و كذلك السرج و المصابيح ينقص نورها كلما أضحى النهار و الليل تلمع فيه عيون السباع لشدة بصيصها .

و أما قول النابغة أو من قال أن قوله في السيوف يجرين خير من قوله يقطرن لأن الجري أكثر من القطر فلم يرد حسان الكثرة و إنما ذهب لما يلفظ به الناس و يتعاودونه من وصف الشجاع الباسل و البطل الفاتك بأن يقولوا سيفه يقطر دما و لم يسمع سيفه يجري دما، و لعله لو قال يجرين دما لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب به >> 1

وقد تعدت ملاحظات العرب على إشعارهم الجوانب اللغوية و الجوانب المعنوية لتمتد الى الجوانب المتعلقة بأهم ما يقوم عليه الشعر العربي و أهم ما يميزه عن غيره من الفنون أعني بذلك الجانب العروضي المتعلق بالوزن و القافية من ذلك ما عابه النقاد قديما على النابغة الذبياني في قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجـــــلان ذا زاد و غير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا و بذلك خبرنا الغراب الأسودُ

1- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي،دار الكتب العلمية بيروت لبنان،دط، دت، ص: 93.

لقد لوحظ عليه الوقوع في ما يسمى عند علماء العروض« الإقواء » و الإقواء هو اختلاف حركة الروي في واحد من أبيات القصيدة ما يؤدي إلى اختلال في النبرة عند التلاوة أو الغناء.

و على كل فإن النقد الأدبي في العصر الجاهلي يمتاز بمجموعة من الخصائص يمكن إجمالها في :

1- أنه نقد فطري يأتي نتيجة ذوق شخصي و انطباع ذاتي .

2- تسيطر عليه في الغالب الارتجالية .

3- يعبر عن أحكام عامة ناذرا ما يعللها و يبرز سببها .

4- وهو عبارة عن أحكام جزئية موجزة

المحاضرة الرابعة

النقد في صدر الإسلام:

لقد كان لظهور الإسلام أثر بالغ في حياة العرب على جميع المستويات إذ أحدث انقلابا كاملا في حياتهم فمن الشرك نقلهم إلى التوحيد و من الكفر نقلهم إلى الإيمان و من الجهل نقلهم إلى العلم و من التشتت نقلهم إلى الوحدة و من العداوة نقلهم إلى التآخي. و الأكيد أن كل ذلك ستكون له ظلاله على الأدب و من ثم على النقد .

من المناسب هنا أن نقف وقفة نحاول من خلالها أن نعرف موقف هذا الدين الجديد من الشعر باعتباره يمثل صورة الأدب حينها و لعل أول ما يمكن أن يتبادر إلى أذهاننا و تجب الإشارة إليه أن القرآن الكريم ضم سورة من سوره المباركات حملت اسم الشعراء عبر من خلالها القرآن الكريم على موقف الإسلام منه في قوله تعالى : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225 (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) .[1]

الآيات الكريمات تضعنا أمام نوعين من الشعر شعر وقف فيه أصحابه موقف العداء من الدين الجديد فهجوا محمدا و تطاولوا على دعوته[2] ، تكلموا بالكذب وبالباطل، و زعموا أنهم قادرون على الإتيان بمثل ما أتى به الرسول صلى الله عليه و سلم و هؤلاء هم شعراء المشركين الذين قالوا: نحن نقول

مثل ما يقول فقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي صلى الله عليه و سلم وأصحابه، ويروون عنهم و هؤلاء هم الذين وصفوا بالغواة. إلا أنه بالمقابل هناك شعراء تميزوا بالإيمان و العمل الصالح و التوحيد و الخير فقالوا شعرا به خدموا الدعوة و خدموا المجتمع أولئك

1- سورة الشعراء الآية:224-225-226-227.

2- منهم : عبد الله بن الزعبري و هبيرة بن أبي وهب و مشافع بن عبد مناف...

الذين طابت ألفاظهم و سمت معانيهم و ناسبت الأخلاق الجديدة التي أتى بها من قال فيه ربه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) ﴾1. و هذا هو الشعر المقبول الذي امتدحه محمد كما هو الشأن مع كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة و شاعر الإسلام حسان بن ثابت الذي كان يجد الدعم من محمد صلى الله عليه و سلم فيقول له : أهجهم يا حسان و روح القدس معك و يقول في شعره: لهذا أشد عليهم من وقع النبال.

لقد ميز الرسول صلى الله عليه و سلم بين نوعين من الشعر و لم يرفض الشعر إطلاقا و لم يقف منه موقفا معاديا و ما كان ليفعل ذلك و هو << بشر يتأثر بالكلمة و الموقف، و عربي في قمة الفصاحة، يقدر التعبير الفني،و يعرف خطره و عمق تأثيره في النفوس،و يطرب له حين يعبر عن مبادئ خلقية و جمالية مقبولة من وجهة الدين الجديد ، ويرفضه و يقبحه حين يكون دعوة الى الشر أو الشقاق أو الرذيلة أو تحريضا على طرح الجدية في الحياة و الاستسلام لمباذلها >>[2] مثل هذا الكلام يضعنا أمام شعر جديد، المقياس الأول فيه هو الأخلاق التي قال عنها محمد صلى الله عليه و سلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق بل أن الله سبحانه و تعالى مدحه بهذه الصفة فقال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾3 .

و مثلما تأثر الشعر بهذا الدين الجديد فقد تأثر النقد به كذلك و لعل ما صدر من الرسول صلى الله عليه و سلم فيما يخص الشعر يعتبر نموذجا راقيا للنقد في هذا العصر من ذلك ما قاله صلى الله عليه و سلم عندما أنشده النابغة الجعدي قوله:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى و يتلـو كتابا كالمـجرة نيرا

بلغنا السماء مجدنا و جدودنا و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إلى أين أبا ليلى؟

فقال النابغة: إلى الجنة .فقال الرسول: إن شاء الله.4

1- سورة الأحزاب الآية : 45-46.

2- محمد مرسي الحارثي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي ،مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، دط ، 1989، ص:54.

3- سورة القلم الآية 4.

4- ينظر، مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، المرجع السابق،63.

و في سؤال الرسول – ص – هنا دلالة على فطنة و حذر و في نفس الوقت تنبيه إلى ضرورة الحذر من عودة معاني الافتخار بالحسب و النسب بعيدا عن روح الإسلام. كما نلاحظ فإن التركيز هنا كان على المضمون و هو ما يتماشى مع الدور الذي يجب أن يقوم به الشعر و الرسالة التي يجب أن يحملها الشاعر الرامية أساسا إلى خدمة الدعوة و توجيه الناس لما فيه الخير و الصلاح لتصلح هذه الحياة و ينعم بها الإنسان . و من النماذج التي تعتبر أحكاما نقدية بصورة أو بأخرى ما قاله محمد – ص – عندما سمع رد حسان بن ثابت على أبي سفيان بن الحارث حيث قوله :

هجوت محمدا فأجبت عنه و عند الله في ذاك الجزاء

فقال له النبي.الكريم":جزاؤك عند الله الجنة يا حسان.1

و لما قال:

فإن أبي و والده و عرضي لعرض محمد منكم وقاء

قال له: وقاك الله حر النار "فقضى له كما يقول ابن رشيق"بالجنة مرتين في ساعة واحدة و سبب ذلك شعره.

و مثلما كان للرسول – ص- آراء نقدية فقد كان لصحابته كذلك آراء أثرت النقد العربي و وجهته و كانت بمثابة النبراس الذي اهتدى به النقاد في كثير من القضايا من بعدهم ، و يعتبر عمر بن الخطاب من أبرز الخلفاء الراشدين إبداء للرأي في الشعر و الشعراء و لا عجب في ذلك فعمر عرف عنه فطنته و سعة ثقافته وشدة طبعه و ميله الشديد للشعر و مدارسته و الناظر فيما صدر عن عمر يلفه لا يخرج عن النقد الأخلاقي كما وضع أسسه الدين الإسلامي يؤكد ذلك رسالته – ض – إلى أبي موسى الأشعري حيث كتب له آمرا : << مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق و صواب الرأي و معرفة الأنساب و كان يقول: أرووا من الشعر أعفه و روي عنه قوله : علموا أولادكم العوم و الفروسية و رووهم ما سار من الأمثال و الحسن من الشعر >> 2

و من يكون بالصفات التي ذكرنا و يقول مثل الكلام الذي قال ليس عجيبا أن تكون له آراء نقدية ذات قيمة و أهمية جعلتها ركيزة ارتكز عليها النقاد من بعده.

من نماذج ما صدر عن ابن الخطاب من آراء نقدية ما روي عن عبد الله بن العباس أنه قال :

قال لي عمر بن الخطاب – ض- أنشدني لأشعر شعرائكم .

قلت من هو يا أمير المؤمنين؟

1- ينظر، مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، المرجع السابق، ص:64.

2- محمد مرسي الحارثي، المرجع السابق ،ص:63

قال : زهير.

قلت و لما كان كذلك ؟(أي أشعر شعرائكم)

قال : كان لا يعاظل بين الكلام و لات يتتبع حوشيه، و لا يمدح الرجل إلا بما فيه .

ماذا يمكن أن نستخلص من خلال هذه المحاورة بين عبد الله بن عباس و عمر – ض –؟

- الشفوية ما زالت مسيطرة على النقد و الأدب (أنشدني..قال)
- معرفة عمر الواسعة بالشعراء و قيمتهم
- موضوعية عمر أشاد بزهير و زهير لم يدرك الإسلام ما يعني أن حكمه كان على الشعر أولا .
- بروز التعليل
- حكم عمر خضع لمعايير محددة تخص الشكل لا يعاظل في الكلام يعني القدرة على الصياغة الجيدة من خلال حسن اختيار اللفظ و حسن توظيفها فجاء أسلوبه سلسا خاليا من التعقيد .
- بروز المبدأ الأخلاقي في الحكم على المضمون (الصدق و الكذب) لا يمدح الرجل إلا بما فيه .

و مما أثر عن أبي بكر الصديق في هذا الشأن ما قاله عندما سمع قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل و كل نعيم لا محالة زائل

قال عن الشطر الأول : صدقت.

و قال عن الشطر الثاني: كذبت ، عند الله نعيم لا يزول. و الحكم مثلما هو واضح على المعنى و ليس على أي شيء آخر .

و من أحكامه النقدية الموجزة خارج إطار المعنى قوله في شعر النابغة و تفضيله عن شعراء عصره فهو كما يرى فيه أنه : أحسنهم شعرا ،و أعذبهم بحرا، و أبعدهم غورا .

إذا نظرنا الى هذا الحكم و تأملناه جيدا نلاحظ أنه ركز على ثلاثة ملاحظات تعتبر من صميم جود الشعر .

الأولى : أحسنهم شعرا و الأمر هنا يتعلق بالتأليف و الصياغة و جودة السبك .

الثانية : أعذبهم بحرا و الأمر هنا يتعلق بالذوق و قوة التأثير .

الثالثة : أبعدهم غورا و الأمر هنا يتعلق بالوضوح و البعد عن الغموض و التعقيد.

خلاصته: أن السبك عند هذا الشاعر حسن و المعاني عذبة تتقبلها النفوس و تستعذبها لبعدها عن الغموض و الإبهام .

و على كل فإن النقد في صدر الإسلام امتاز

- بأنه نقد أخلاقي التزم بمبادئ الدين و الخلق .
- تبدو فيه ظواهر من الموضوعية
- تجلت فيه المفاضلة بين الشعراء وفق مقاييس تتقارب بين النقاد في أغلب الأحيان .
- و أنه بقي قائما على الشفوية .

المحاضرة الخامسة

النقد في العصر الأموي

الحديث عن النقد في العصر الأموي، يحتم علينا أن نقف وقفة تذكير بالبيئة التي ظهر فيها، و طبيعة الأدب الذي أنتجته هذه البيئة . و المعلوم أن الحياة في بداية هذا العصر، تميزت بكثير من الاضطرابات و الصراعات السياسية التي كانت نتيجة حتمية لتعدد الأحزاب و اختلاف توجهاتها و قد كانت جميعها تزعم أحقيتها بالخلافة بعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه، و من أبرز هذه الأحزاب التي ظهرت على الساحة السياسية يومئذ، الشيعة ، الخوارج ، حزب عبد الله بن الزبير .

المعلوم أن حكم بني أمية – كما يقول المؤرخون – تميز بتعطيل مبدأ الشورى و بعث أو غض البصر عن العصبية القبلية التي بدأت تعود من جديد، و قد لعب الشعراء فيها الدور الأبرز، إذ كان لكل حزب شاعره أو شعراؤه الذين يمجدون رجالاته و يمدحونهم، و يردون على خصومهم و يهجونهم ، يدعون إلى مبادئه و يروجون لأفكاره سعيا منهم لإقناع الناس و زيادة عدد الأتباع .

كما تميز هذا العصر باهتمام الخلفاء و الأمراء بالشعر و الشعراء و قد كانوا هم ذاتهم من الذواقين للشعر العارفين بأسرار صناعته ..لقد ساعدت هذه الظروف على ظهور حركة أدبية نشطة << فعاد الشعر إلى حياته الأولى و ازدادت أبوابه اتساعا و أغراضه تنوعا و افتنانا و جادت معانيه و تهذبت ألفاظه بعامل المنافسة و بتأثير الأسلوب القرآني الذي أخذ الشعراء ينظرون فيه و يحاول أن يحتديه كل مزاول لصناعة الكلام...>> 1

إن كان هناك من الدارسين من يرى أن النقد في هذا العصر لم يظهر فيه الجديد و لم يختلف عن النقد في صدر الإسلام إلا إن هناك من يرى أن للنقد في هذا العصر وجه آخر لم يعهده من قبل . و مهما يكن من أمر فإن سنة الحياة و طبيعة الأمور تفرض علينا أن نعترف بوجود الجديد فيه تبعا لظهور الجديد في البيئة التي ظهر فيها حتى و إن كان هذا الجديد نسبيا .

و الأكيد أن النقد في هذا العصر ازدهر و قد كان وراء هذا الازدهار مجموعة من العوامل يأتي على رأسها الحركية التي عرفها الشعر خاصة الشعر السياسي و شعر النقائض إضافة إلى اهتمام الخلفاء و الأمراء الذين كانوا كما أسلفنا من الذواقين للشعر و الممارسين لنقده يضاف إلى ذلك جلسات النقد التي كانت تعقد في مجالس الأمراء و أخيرا نشأة علوم اللغة التي ساعدت كثيرا على الاهتمام بعلوم النحو و البلاغة على وجه الخصوص حيث بدأت هذه العلوم تستقطب النقاد و أصبحوا يلاحظونها في أشعار الشعراء و يعلقون عليها .

و قد اتسعت رقعة الخلافة في هذا العصر فاختلفت البيئات و تنوعت فتنوع بذلك النقد و تعددت موضوعاته و قد درج الدارسون حين الحديث عن النقد في هذا العصر على تقسيمه الى مدارس مختلفة تبعا لثلاث بيئات حيث << ظهرت المدارس الأدبية في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية و أطرافها و تنوع معها النقد الأدبي تنوعا ملحوظا >>2

أولا:مدرسة الحجاز

عرفت منطقة الحجاز في هذه المرحلة استقرارا ألقى بضلاله على الحياة في جميع نواحيها ، فقد عم الخير و طاب العيش و اجتمع الأثرياء ما خلق جوا من الرفاهية ساعد على ظهور اللهو و الترف من خلال انتشار الغناء و دور القينات فقد توافد المغنون و المغنيات من مختلف المناطق طلبا للشهرة تارة و للتكسب تارة أخرى، بيئة كهذه ظريفة رقيقة متحضرة لا بد أن يتأقلم معها الشعراء ويسيطر فيها شعر رقيق عذب يناسبها و يناسب طبيعة الحياة فيها و لا شك أن الغزل سيكون الغرض الأنسب لهذه البيئة الرقيقة فكثر شعراؤه و تنافسوا فيه سواء العفيف منه أو الماجن و لأن علاقة النقد بالأدب هي علاقة ارتباط فقد جاء نقد هذه المرحلة مناسبا لأدبها و طبيعتها فامتاز هو الآخر بالرقة و العذوبة و الرقي و ركز على الغزل من خلال المعاني بالدرجة الأولى. وقد لاحظ شعراء هذا العصر على أشعار بعضهم البعض ملاحظات متعلقة بالمعاني عدها الدارسون أحكاما نقدية من ذلك ما كان بين عمر بن أبي ربيعة ،فقد سمع كثير عمر بن أبي ربيعة ينشد:

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف في عمر

قالت: تصدي له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها: قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد في أثري

فيقول كثير: «أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قبحت وأسأت وقلت الهُجْر، وإنما وصفت الحرة بالحياء والتواء والخجل والامتناع

:ويسمع عمر بن أبي ربيعة كثيرًا يقول:

ألا ليتنا يا عز كنا لذي غنى بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب

كلانا به عُرّ فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدي وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمي ونضرب

وددت وبيت الله أنك بكرة هجان وأني مصعب ثم نهرب

نكون بعيري ذي غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فيقول له عمر: " تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطرد والمسخ، فأي مكروه لم تتمن لها ولنفسك، لقد أصابها منك قول القائل: " معاداة عاقل خير من مودة أحمق "

وقد اشتهر في هذه البيئة مجموعة من النقاد غير الشعراء يأتي على رأسهم ناقدان متميزان هما : ابن أبي عتيق و سكينة بنت الحسين.

من نماذج النصوص النقدية التي تنسب لابن أبي عتيق و تتجلى فيها أحكام نقدية صادرة عن وعي نقدي و متكئة على مقاييس محددة و فيها الكثير من الدقة رأيه في شعر بن أبي ربيعة رائد الغزل الماجن في عصره حيث يقول:" لشعر عمر نوطة بالقلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر غيره، وما عُصي الله — عز وجل — بشعر أكثر مما عصي بشعر ابن أبي ربيعة ".

عندما ندقق النظر و نشغل الفكر في هذا النص النقدي نستنتج أن الرجل يدرك جيدا حقيقة الشعر و علاقته بالمشاعر و الأحاسيس و قيمة تفاعله مع المتلقي التي تعتبر غايته الأساسية فقوله نوطة في القلب و علوق بالنفس فيه إشارة للجانب النفسي المتعلق بالمشاعر و قوله درك للحاجة يوحي بالدلالة على الحيوية و التفاعل مع المتلقي و بالتالي الوصول الى الغاية.

بعد هذا الحكم حدد ابن عتيق ما يمكن اعتباره أسسا فنية تضفي على الكلام الموزون المقفى صفة

الشاعرية حيث يقول:" فخذ عني ما أصف لك، أشعر قريش من دق معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، ومتن حشوه، وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته ".

فدق معناه : يعني المعنى الدقيق الدال على مقصده من صياغته بدقة لفظه و عذوبة عبارته

لطف مدخله : يعني القدرة على الافتتاح الجيد و هذا ما يصطلح على تسميته حسن الاستهلال عند البلاغيين.

سهل مخرجه : يأن يمتاز بالسلاسة في الانتقال من موضوع الى آخر و يقابله يقابله عند البلاغيين مصطلح حسن التخلص.

متن حشوه : يعني ترابط النص و تماسك أجزائه.و الأكيد أن توفر هذه الأسس في النص يعني أنه نص شعري حقق صفة الاتساق و الانسجام التي تضمن له الشاعرية التي تخلده.

و لقد كان لسكينة بنت الحسين كذلك مواقف و أحكام نقدية ظريفة و متميزة و هي المرأة التي كان يحتكم إليها الشعراء فتصدر أحكامها بذوقها انطلاقا من طبيعتها كامرأة على دراية تامة بطبيعة نفسية المرأة و تفكيرها. من نماذج أحكامها النقدية التي تناقلتها كتب الأدب ما قالته معلقة عندما سمعت نصيبا متغزلا بمحبوبته قائلا:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا حزناه من ذا يهيم بها بعدي

استهجنت هذا القول و عابت صاحبه الذي لم يحسن التعبير عما أراده لأن في رأيها من يحب لا يرضى لأي كان أن يحب محبوبه و قد اقترحت أن يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صَلَحت دعد لذي خلة بعدي

و عندما سمعت قوي جرير:

طرقتك صائدة القلوب و ليس ذا حين الزيارة فلرجعي بسلام

قالت مستهجنة : قبح الله الشاعر و شعره و أي ساعة أحلى للزيارة من الطروق أفلا قال أدخلي بسلام.

و نقد سكينة في عمومه انصب على المعنى و نبع عن ذوق ذاتي لا تعليل فيه بل تجد فيه تصويبا و توجيها انطلاقا من خبرتها كامرأة ذات قيمة لها كبرياؤها و كرامتها

ثانيا : مدرسة الشام

الشام عاصمة الخلافة التي ارتضاها الأمويون فيها مجالسهم السياسية و دورهم و حدائقهم قصورهم و كذلك مجالسهم العلمية و الأدبية التي يؤمها العلماء و الأدباء و الشعراء من مختلف الأصقاع لقد مثلت الشام في هذا العصر حاضرة علمية و أدبية طغى عليها الطابع السياسي الذي ارتبط بالمدح فكانت بذلك مدرسة المدح بامتياز إذ سيطر هذا الغرض على الإنتاج الشعري .و قد تبع ذلك نقد ارتكز في مجمله على غرض المدح و دار حوله، و كان هذا النقد في عمومه تقدا تقليديا نظر إلى القصيدة بعين السابقين و يقيمها بحسب القيم الموروثة فيستحسنها لقرب معانيها و صدق مشاعرها و دقة وصفها و جزالة لفظها و قوة سبكها و قرب معانيها من الحقيقة .

لقد اهتم الخلفاء الأمويون بالشعر و الشعراء فتحوا لهم مجالسهم و ناقشوهم في أفكارهم و لاحظوا عليهم زلاتهم و حكموا لهم تارة و عليهم تارة أخرى لقد كانوا بحق من رجالات النقد الأوائل و لعل أشهرهم الخليفة عبد الملك بن مروان الذي عرف بمجالسه الأدبية التي يستقبل فيها الشعراء و يغدق عليهم من الهدايا و الجوائز ما يبعث فيهم روح التنافس .

من نماذج الأحكام النقدية التي تتناثر في كتب الأدب و تنسب لعبد الملك بن مروان موقفه من الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات عندما قال في قصيدة يمدحه فيها :

يتألق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

استهجن عبد الملك من مضمون البيت إذ رأى أنه يخلو من صفات الجود و العزة الكرامة و الشجاعة و الفروسية و النجدة و القيادة و غيرها من القيم التي اعتاد العرب أن يمدحوا بها ممدوحيهم بل رأى أنه بمدحه هذا قربه من العجم و قال له: " تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم و تقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت و لا له كبرياء

و من النماذج أيضا:

ما نقف عليه عند المزرباني صاحب " الموشح "من أن الراعي النميري أنشده قصيدته التي منها قوله:

أ خليفة الرحمان إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

فقال عبد الملك " ليس هذا شرح إسلام وقراءة آية"(13).

كلام كهذا يعني أن عبد الملك يعي جيدا أن الشعر فن و قيمته تك في شاعريتة ، فهو لا يقبل من الشعر ما كان تقديراً لمسائل دينية أو خلقية فليس هذا وظيفة الشعر، وإنما هو كما يقول: شعور وإحساس يعبر عنهما في بيان جميل ونغم بديع وتصوير مفتن، أما ما قاله الراعي فليس شعراً، لأنه لا عاطفة فيه ولا شعور وإنما هو تقرير لحقائق لم يضفي عليها الشاعر من ذاته ما يقربها من روح الشعر.

ثالثا: مدرسة العراق:

ضمت العراق المعارضة التي كانت تقف موقف العداء من الخلافة الأموية و العراق كما نعلم كانت تمثل مركزا علميا و أدبيا و ثقافيا متميزا ظهرت فيه تأثيرات أجنبية نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم خاصة الفرس لقربهم الجغرافي من المنطقة، في بيئة كهذه لا بد من ظهور أدب تقليدي تخللته محاولات تجديدية ما يعني أن الشعر في هذه المرحلة مال إلى النمط القديم فجاء مشابها للشعر الجاهلي من حيث موضوعاته وأساليبه و لا شك أن طبيعة الحياة في هذه البيئة ستفرض انتشار أغراض شعرية تناسبها و تتميز عن غيرها فكان للفخر بالأصول و العصبية التي عادت لتطفو على السطح و الهجاء السياسي و المدح الذي ابتعد عن مدح الخلفاء و الأمراء و كذلك النقائض حضورا كبيرا و لأن بيئة العراق كانت بيئة علمية اتسع فيها نطاق علوم اللغة من نحو و صرف فقد جاء فيها النقد ميالا الى العلمية و قد تزعمه علماء اللغة بالدرجة الأولى ما جعل البعض يصف هذه المدرسة بمدرسة اللغويين و الواقع يشهد أنه كان لهؤلاء العلماء دور كبير أفادوا من خلاله النقد من أوجه متعددة

-**أولا**: كانت آراؤهم في نقد الشعر والحكم على الشعراء مبنية على بعض أصول وأسس موضوعية

ثانيا: كان لهم مجهود كبير في جمع ما قاله الأدباء والنقاد قبلهم في الشعر والشعراء

ثالثا: كان لهم الفضل في رواية ما كان من خصومات قامت حول كبار الشعراء و عرض أقوال حجج أنصار كل شاعر و المعلوم أن تلك الخصومات كانت في حقيقتها تمثل وجها من أوجه النقد القديم.

لقد تركزت ملاحظات و أحكام نقاد هذه المدرسة على اللغة من حيث الاعراب و الصرف و الأوزان و القوافي

و يعتبر كل من حماد الراوية و أبي عمرو بن العلاء و خلف الأحمر و الأصمعي و المفضل الضبي عبد الله الحضرمي ...من أبرز نقاد هذه المدرسة .

من النماذج التي يستشهذ بها الدارسون و المهتمون بالنقد القديم

ما روي من أن عيسى بن عمر عاب على النابغة الذبياني خطأه في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

حيث يرى أن (ناقع) بالرفع خطأ و الصحيح (ناقعاً) بالنصب على الحال

ومن ذلك أيضا ما وقف عليه أبو عمرو بن العلاء في شعر ابن قيس الرقيات في قوله :

تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيئتيه

حيث يرى أنه كان ينبغي أن يقول: وارزيتاه، كما تقول: واعماه واخياه .

كما كان لأبي عبد الله الحضرمي النحوي ملاحظة تتعلق باللغة على الفرزدق فنقده في قوله:

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من الناس إلا مسحتا أو مجلف

فقد خطأه بأن عطف المرفوع وهو "مجلف" على المنصوب (مسحتا)

و من النماذج التي تحاكي نقد القدماء ما قاله عمرو بن العلاء في شعر ذي الرمة " إنما شعره نقط عروس: يضمحل عن قليل و أبعار ظباء: لها مشم في أول شمها ثم تعود الى أرواح البعر ".

فشعر ذي الرمة كما يرى ابن العلاء يشبه ما تضعه العروس من نقط على خدها للتزين والذي يزول بالغسل، كما شبهه بأبعار الظباء التي لها رائحة النبت الطيب الذي تأكله، لكن بمرور الزمن تزول هذا يعني أن شعر ذي الرمة جميل عذب تطيب له النفس أول ما تسمعه لكنه لا يلبث أن يفقد تلك العذوبة ليتجلى ضعفه ما يعنى أن أثره في النفس لا يدوم وإنما هو ككل شيئ بلا نفع وهذا الحكم في هذا الرأي هو نفسه حكم و رأي الأصمعي في شعر ذي الرمة حيث يقول : " إن شعر ذي الرمة حلو أول ما نسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف، ولم يكن له حسن"